﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ٩٦ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ ٩٧﴾ [هود: 96 - 97]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتينِ لما قَبْلَهُما:

الانتقالُ من ذكرِ فتنةِ المـالِ إلى فتنةِ السُّلطانِ والجاهِ والمالِ

لَمّا كانَ شعيبٌ عليه السلام داعيًا قومًا ملأهُمُ التَّرفُ والمالُ، وكان المانعُ الأكبرُ من إيمانِهم استحواذَ المالِ على قلوبِهم، انتقلَ إلى ذكر العِبرةِ من قصّةِ موسى عليه السلام مع فرعونَ، فقومُ فرعونَ قد جمعوا المالَ والجاهَ والسّلطانَ، فأتوا على أسباب الكبرِ المحسوسةِ والمعنويّةِ، فكانَت ختامًا لذكرِ القَصصِ في هذه السّورةِ، وهي على قصرِها إلّا أنَّها تُمثِّلُ عمومَ البلاءِ الّذي وقعَ فيه الأقوامُ السّابقون، وما سيقعُ فيه مشركو قريش.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَسُلۡطَٰنٖ﴾: أصلُ مادّتِه (سلط)، فالسّينُ واللّامُ والطّاءُ أصلٌ واحِدٌ، وهو القوَّةُ والقَهرُ. من ذَلِكَ السَّلاطَةِ، منَ التَّسَلُّطِ وهو القَهرُ، ولذلكَ سُمّيَ السُّلطانُ سُلطانًا. والسُّلطانُ: الحُجَّةُ[1] والسُّلطانُ: قُدرةُ المَلِكِ، وقُدرةُ من جُعِلَ ذلك له وإنْ لم يكن مَلِكاً، كقولك: قد جَعَلْتُ له سُلطانًا على أخذِ حقّي من فلانٍ، والنّونُ في السّلطان زائدةٌ[2]. فالسّلطانُ هنا: الحجّةُ والبرهانُ والدّليلُ.

2) ﴿وَمَلَإِيْهِۦ﴾: أصلُ مادّتِه (ملأ)؛ فالميمُ واللّامُ والحرفُ المُعتَلُّ كلمةٌ واحدةٌ هي الزَّمنُ الطَّويلُ. وأقامَ مَليًّا؛ أي: دَهرًا طويلًا. وتَمَلَّيتُ الشَّيءَ، إذا أقامَ مَعَكَ زمانًا طويلًا، ومَلَأتُ الشَّيءَ أملَؤُهُ مَلْئًا. والملءُ: الاسمُ لِلمقدارِ الَّذي يُملأُ، وسُمّيَ لأنَّهُ مُساوٍ لِوعائِهِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سلط).
(2) الخليل، العين: (سلط).

في قَدرِه. ويُقالُ: أعطِني ملأَهُ وملأيهِ وثَلاثةَ أملائِه. ومنهُ المَلَأُ: الأشرافُ منَ النّاسِ، لأنَّهُم مُلِئوا كَرَمًا[1]، وملأُ فرعونَ: قومُه وجماعتُهُ الّذين يشاورُهم.

3) ﴿بِرَشِيدٍ﴾: أصلُ مادّتِه (رشد)، فالرّاءُ والشّينُ والدّالُ أصلٌ واحدٌ يدلُّ على استِقامَةِ الطَّريقِ. والرُّشْدُ والرَّشَدُ: خِلافُ الغَيِّ. وأصابَ فُلانٌ من أمرِهِ رُشْدًا ورَشَدًا ورِشْدَةً[2]، ورجلٌ رشيدٌ وراشِدٌ. والإرشادُ الهِدايَةُ والدّلالَةُ[3]، والرّأيُ الرّشيدُ: المستقيمُ الصّائبُ، وهو المعنى المرادُ هنا.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تقديمُ الباطلِ على الحقِّ سلوكُ المترفين وسبيلُ التّافهين

يؤكِّدُ اللّهُ تعالى لنبيّه محمّدٍ ﷺ أنّه قد أرسلَ نبيَّه وكليمَه موسى عليه السلام، بالآياتِ الدّالّةِ على توحيدِ اللّهِ، وبالحججِ الواضحةِ الدّالَّةِ على صدقِ ما جاء به، إلى فرعونَ والأشرافِ من قومه، فاتّبعَ هؤلاء أمرَ فرعونَ لهم بالكفرِ باللّهِ ومخالفةِ موسى عليه السلام، مع أنَّ أمرَ فرعونَ ليس بأمرٍ ذي إصابةٍ للحقِّ حتَّى يُتَّبَعَ، ولا مستقيمٍ كي يُسمَعَ[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الواوِ ودلالتُها:

إيرادُ المعطوفاتِ للاعتبارِ وتحقيقِ الاستبصارِ

الواوُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ عطفتِ القصّةَ على نظيرتِها[5] الّتي سبقَت، والأحسنُ أن تكونَ معطوفةً على قولِهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ [هود: 69]، إذ "لا يصحُّ أنْ يُعطفَ على إرسالِ شعيبٍ إلى مدينَ؛ لأنّهُ لا يشاركُهُ في

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ملي).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رشد).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (رشد).
(4) جماعة منَ العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 232.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/155.

نوعِهِ المشتركِ مع إرسالِ صالحٍ وهودٍ"[1]، والصَّحيحُ أنَّها قصصٌ مُتعاطِفةٌ، معطوفٌ بعضُها على بعضٍ للاعتبارِ، ومردُّ المعطوفاتِ على المعطوفِ عليه الأوّل.

معنى اللّام ودلالتُها:

ما وقعَ للسّابقين سيقعُ في اللّاحقين، فالاعتبارُ سيِّدُ النُّظّار

اللّامُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ لإفادةِ التّوكيدِ[2] والثّبوتِ والتَّحقيقِ، ويعدُّها بعضُهم بأنَّها واقعةٌ في جوابِ قسمٍ محذوفٍ؛ أي: واللّه لقد أرسلنا. وافتتاحُ القصّةِ بهذا التَّأكيدِ فيه بيانٌ أنَّ شأنَ المعاندين الكفرُ واتِّباعُ الباطل طلبًا للشَّهوةِ وتحقيقًا للمتعةِ، وأنَّ ما كان للسّابقين سيكون في المعاصرين، فلا يعجبنَّ أحدٌ ممّا سيقعُ منهم.

دلالةُ استعمالِ (قدْ):

دخلَت (قدْ) على الفعلِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾؛ لإفادةِ التّأكيدِ[3] وتحقيقِ إرسالِ موسَى ﷺ بالآياتِ الظّاهرةِ والبراهينِ السّاطعةِ، الّتي هي مُوجِبةٌ للهدى والرّشادِ.

دلالةُ التّعبيرِ بالفعلِ الماضي:

الإيذانُ بثبوتِ الإرسالِ واستحكامه

جاءَ فعلُ الإرسالِ ماضيًا في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ إيذانًا بثبوتِ تحقُّقِهِ واستحكامِه، وأنّه قد قُضي فلا مردَّ لهُ، وهو زمنٌ دالٌّ على التَّحقُّقِ والثّبوتِ، وأنّهُ حصلَ وانصرمَ، ولا مجالَ للتّنصُّلِ منهُ.

دلالةُ نونِ العظمةِ:

الإيماءُ إلى باهرِ المعجزاتِ

أُسنِدَ فعلُ الإرسالِ إلى النُّونِ في قولِهِ تعالى: ﴿أَرْسَلْنَا﴾ مُبرزًا إيّاهُ في مظهرِ العظمةِ في إشارةٍ إلى معجزاتِهِ الباهرةِ[4]؛ ليدلَّ على عظمةِ ربِّ العالَمينِ سبحانهُ، وأنّ الرّسولَ مُؤيَّدٌ منَ اللّهِ تعالى بقوّتِهِ وجبروتِهِ وملائكتِهِ وجندِهِ.

(1) رضا، تفسير المنار: 12/125.
(2) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 12/91.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/155.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/368.

سرّ تخصيصِ موسَى عليه السلام بالذّكرِ:

موسى صاحبُ الرِّسالةِ، وهارونُ مأمورٌ باتّباعِهِ

كثيرًا ما يقترنُ اسمُ موسى بأخيهِ هارونَ عليهما السلام، فهما مُرسَلانِ منَ اللهِ تعالى، ومشاركانِ في الدّعوةِ إلى التّوحيدِ غيرَ أنّهُ خصّصَهُ بالذّكرِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ﴾؛ لأنّهُ صاحبُ شريعةٍ، وهارونُ مأمورٌ بأنْ يتّبعَهُ[1]، فكان ذكرُ موسى عليه السلام ذكرًا لأخيه، ولمّا كان هو مبدأ الرِّسالةِ، وهو القائمَ بها أصالةً، كان ذكرُه وحدَه هو الأصلَ.

دلالةُ الباءِ في قولِهِ تعالى: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾:

ظهورُ الآياتِ كانَ مصاحبًا لزمنِ الإرسالِ

الباءُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ تُشيرُ إلى المصاحبةِ والملابسةِ[2]؛ فهي في موضعِ الحالِ من موسى عليه السلام؛ أي: أنّهُ تعالى أرسلَهُ مصحوبًا بآياتٍ منّا[3]، كانَ ظهورُها زمنَ إرسالِهِ إلى فرعونَ وملئِهِ.

سرُّ التّعبيرِ بالآياتِ دونَ المعجزاتِ:

الآياتُ اسمٌ جامعٌ للعلاماتِ الظّنّيّةِ والمعجزاتِ اليقينيّةِ

عبّرَ بالآياتِ في قولِهِ تعالى: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ دونَ المعجزاتِ لما بينَهُما من تقاربٍ وتدانٍ في المعنى؛ ولأنَّ الآياتِ اسمٌ "للقدرِ المشتركِ بينَ العلاماتِ الّتي تفيدُ الظّنَّ، وبينَ الدّلائلِ الّتي تفيدُ اليقينَ"[4]؛ فتدخلُ المعجزاتُ كالعصا واليدِ والطّوفانِ وغيرِها في حيّزِ الآياتِ بمعناها الشّاملِ ولا عكس.

فائدةُ التّعبيرِ بالجمعِ:

معجزاتُ موسى كثيرةٌ يصدقُ عليها الجمعُ

جاءَ لفظُ ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ بصيغةِ الجمعِ لصدقِ هذا اللّفظِ على معناه الموضوعِ لهُ، فالآياتُ هي المعجزاتُ والبيّناتُ، وهي: "العصا واليدُ والطُّوفانُ والجرادُ والقُمَّلُ والضّفادعُ والدَّمُ ونقصٌ منَ الأموالِ

(1) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاويّ: 10/190.
(2) ابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 140.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/49، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/35.
(4) زاده، حاشية على تفسير البيضاويّ: 4/692.

والأنفُسِ والثَّمراتِ، ومنهُم منْ أبدلَ النَّقصَ بإظلالِ الجبلِ"[1] فهذهِ آياتٌ كثيرةٌ يصدقُ عليها إطلاقُ لفظِ الجمعِ.

دلالةُ إضافةِ الآياتِ إلى ضميرِ العظمةِ:

الآياتُ النّازلاتُ منَ اللهِ تعالى مؤيّداتٌ ومقوّياتٌ

لمّا كانتِ الآياتُ مُنزَلَةً منهُ تعالى أضافَها لنفسهِ في قوله تعالى: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ على طريقِ (نا) المؤذنةِ بالعظمةِ والكبرياءِ والسّلطانِ؛ للدّلالةِ على عظمتِها[2]؛ أي: بآياتنا الّتي يحقُّ لها العظمةُ بإضافتها إلينا لتدلَّ على جلالِنا وقدرتنا[3]؛، فسموّ النّازلِ من سموّ المُنزِلِ سبحانهُ، وللإشعارِ بأثرِ هذه الآياتِ في الدَّعوةِ والتَّأييدِ.

أوجهُ عطفِ السُّلطانِ على الآيات:

يتعيَّنُ معنى عطفِ السّلطانِ المبينِ على الآياتِ بحسبِ الاعتباراتِ

في قولهِ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ﴾ وسّطَ الواو بينَ الآياتِ والسُّلطانِ المبينِ، ولهذا العطفِ أوجهٌ:

الأوّل: إمّا أن يكونَ باعتبارِ التّغايرِ الوصفيِّ، فقد أرسلَهُ الحقُّ سبحانهُ بالآياتِ والسّلطانِ الواضحِ في نفسهِ أو الموضِّحِ إيّاها[4].

الثّاني: وإمّا أن يكونَ من بابِ عطفِ الخاصِّ على العامِّ؛ فإنَّ السّلطانَ المبينَ يحتملُ أن يكونَ معناهُ العصا؛ لأنّها أكبرُ آياتهِ وأعظمُها وأبهرُها، فنصّ عليها كما نصّ على جبريلَ وميكائيلَ بعد ذكرِ الملائكةِ على سبيلِ التّشريفِ بالذّكرِ[5] ولقولهِ تعالى: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنۡ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكۡبَرُ مِنۡ أُخۡتِهَاۖ﴾ [الزّخرف: 48].

الثّالث: من بابِ عطفِ العامِّ (السّلطان) على الخاصِّ (الآيات)[6]، فلمّا كانَ معنى السّلطانِ المبينِ هو الحجّةَ الواضحةَ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/204.
(2) محمّد الهلال، تفسير القرآن النّريّ: 12/91.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/18 - 17/48.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/327، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 6/129.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/204، ورشيد رضا، تفسير المنار: 12/125.
(6) الطّباطبائيّ، الميزان: 10/380.

المُلزمةَ، والأمرَ القاهرَ العظيمَ جدًّا، الّتي لا حيلةَ لهُم في مُدافعةِ شيءٍ منهُ، والبرهانَ البالغَ المتسلّطَ على العقولِ والأفهام؛ فيعمُّ على هذا الاعتبارِ الآيةَ المعجزةَ والحجّةَ العقليّةَ[1]؛ أي: إنّه نفسُ الآياتِ، وعبَّر عنها بذلك على طريقةِ العطفِ تنبيهًا على جمعِها لعُنوانينِ جليلينِ، وتنزيلاً لتغايرِهما مَنزلةَ التَّغايرِ الذّاتيِّ[2].

سرُّ التّعبيرِ بالسّلطانِ عنِ الحجّةِ:

الحجّةُ سلطانٌ؛ لأنّ صاحبَها يقهرُ غيرَهُ قهرَ السُّلطانِ رعيتَهُ

جاء التَّعبيرُ بالحجّةِ القاهرةِ والبرهانِ المفحم بالسّلطانِ المبينِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾، وسرُّ ذلكَ أنَّ صاحبَ الحجّةِ يَقهرُ منْ ليسَ له حجّةٌ، مثلَما يَقهرُ السّلطانُ الحاكمُ غيرَهُ؛ فوُصِفتِ الحجّةُ بأنّها سلطانٌ[3].

وسُمِّيَ سلطانًا؛ لأنّهُ الحجّةُ الإلهيّةُ في أرضِهِ سبحانهُ، واشتقاقُ السّلطانِ منَ السّليطِ؛ وهو ما يضاءُ بهِ، فيقالُ للزّيتِ سليطًا[4]؛ لأنّهُ يستضاءُ بهِ، وفي ذلكَ استعارةٌ فكما يستضاءُ بالسّليطِ والزّيتِ في الظّلام، فكذا الحجّةُ تنيرُ للإنسانِ طريقَ هداهُ. ويجوزُ أن يكونَ السّلطانُ مُشتقًّا منَ التّسليطِ؛ فالعلماءُ سلاطينُ العلم، والملوكُ سلاطينُ القدرةِ والتّمكينِ، وإنْ كانَت سلطنةُ العلم أكملَ وأقوى؛ لأنّها لا تقبلُ النّسخَ والعزلَ، ولأنّ سلطنةَ الملوكِ مُعرَّضةٌ للتّغييرِ والتّحويلِ، وسلطنةَ العلماءِ من جنسِ سلطنةِ الأنبياءِ، والأخرى من جنسِ سلطنةِ الفَراعنةِ[5].

نكتةُ وصفِ السّلطانِ بالمبينِ دونَ البيِّنِ:

البيّنُ بنفسهِ مُبيّنٌ لغيرِهِ، وليس بهِ حاجةٌ للإثباتِ

في قولِهِ تعالى: ﴿وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ وصفَ السّلطانَ بالمبينِ، ولم يصفهُ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/565 - 9/249، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 3/573 - 5/202 - 6/505.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/136.
(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 18/393.
(4) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/76.
(5) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 18/393.

بالبيّن، "أيْ: بيّنٌ بنفسه، وهو في قوّة بيانه كأنّهُ مُبينٌ لغيره ما فيه من الأسرار"[1]، فهو الظّاهرُ الجليُّ المتأكّدُ بالحسّ، وليستْ به حاجةٌ إلى الإثباتِ أو الدّليل، ولمّا كانتِ الآياتُ تعمُّ الأمارةَ والدّليلَ القاطعَ، والسّلطانُ يختصُّ بالقاطع، أمّا المبينُ فمختصٌّ بما فيه جلاءٌ ووضوحٌ بعدَ الخفاء، ولذلك كانَ التّعبيرُ بالسّلطانِ المبينِ هنا على بابه، وأنّهُ حينما بانَ الفرقُ بينَ الآيةِ والسّلطانِ أتبعَهُ بالوصفِ المبين[2].

توجيهُ إفرادِ السّلطانِ:

إظهارُ شرفِ السّلطانِ باعتبارِه أبهرَ المعجزاتِ

لمّا أوردَ الآياتِ الّتي أرسلَ بها موسَى عليه السلام على صيغةِ الجمعِ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، وهي الآياتُ الباهرةُ، عطفَ عليها ﴿وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ على صيغةِ الإفرادِ؛ لأنّهُ أريدَ به العصا، وقد أفردَها بالذّكرِ إظهارًا لشرفِها كونها آيةً باهرةً عجيبةً[3] دالّةً على قدرتِه تعالى، وانتصارًا لرسولِه موسى عليه السلام.

فائدةُ تقديمِ ذكرِ فرعونَ على الملأ:

الملأُ تَبَعٌ للمصالحِ والشّهواتِ، وعنوانُها فرعون

قُدِّمَ ذكرُ فرعونَ على ملئِه في قولِه تعالى: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ عقبَ ذكرِ إرسالِ موسى إليهم؛ "لأنّ اتّباعَهُم أمرَ فرعونَ حصلَ بأثرِ الإرسالِ؛ ففُهِمَ منهُ أنّ فرعونَ أمرَهم بتكذيبِ تلكَ الرّسالة"[4]، وفرعونُ هو المقصودُ بالإرسالِ لعلمِ اللّهِ تعالى أنَّ الملأ أتباعُه على الحقيقةِ، فذكرَهم باعتبارِهم مُحيطين به من كلِّ جانبٍ، لا يرعوونَ عن أمرِه، ولا يغيبونَ عن حكمه، ولهذا التَّقديم فائدتان:

الأولى: كونُ الملأ أهلَ الحلِّ والعقدِ والاستشارةِ والاتّباعِ إيرادًا وإصدارًا في مملكتِه الّذينَ يستشيرهُم في أمرِ موسى، ويعهدُ إليهم بتنفيذِ ما يقرّرُهُ عليهم في تدبيرِ الأمورِ المهمّة[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/368.
(2) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاويّ: 10/192.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/238.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/155.
(5) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/125، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/238.

الأخرى: التَّعريضُ بعامّةِ النّاسِ الّذينَ يتّبعونَ هؤلاءِ الأشراف حذو القذّةِ بالقذّةِ من غيرِ حكمةٍ ولا تأنٍّ ولا رويّةٍ، ولا يرونَ من رأيهم إلّا ما يراهُ لهم أولئكَ الملأ[1]، والملأُ تَبَعٌ لفرعونَ، فآلَ الأمرُ كلُّهُ له، فلا معنى للأمَّةِ الّتي ترى الأمورَ بعينِ شخصٍ واحدٍ.

دلالةُ إضافةِ الملأِ إلى الضّمير:

لا معنى للملأِ إلّا باعتبارِهم ملأ فرعونَ

عُبِّرَ عن حاشيةِ فرعونَ بقولهِ تعالى: ﴿وَمَلَإِيْهِۦ﴾ بإضافتهم إلى الضّميرِ العائدِ عليهِ، وتخصيصِهم بالذّكرِ؛ لبيانِ أنَّ الملأ لا وجودَ لهم إلّا باعتبارِهم تابعين لفرعونَ، فجاءتِ الإضافةُ بيانًا لهذا المعنى الّذي يكشفُ تفاهتَهُم وسخافةَ كيانِهم، وضعفَ شخصيّاتِهم.

سرُّ التّعبيرِ بالفاءِ:

السُّرعةُ في تعكيسِ الغايةِ الحميدةِ إلى الضّلالةِ الخبيثةِ

في قولهِ تعالى: ﴿فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ﴾ رتّبَ فعلَ الاتّباعِ بالفاءِ دونَ (ثمَّ) أو (الواوِ) في إشارةٍ إلى النّعيِ عليهم وتقبيحِ فعلِهم؛ فقد أرسلَ سبحانهُ موسى بالآياتِ الظّاهرةِ والبراهينِ السّاطعةِ، وهو ممّا يقتضي الهدى والرّشادَ؛ فآثروا عليهِ متابعةَ مَن يوصلُهُم إلى مراكسِ الغيِّ والتّيهِ والضّلالِ في الدّنيا، ثمَّ يوردُهُم مواردَ النّارِ في الآخرةِ[2] بسرعةٍ فائقةٍ، فكأنَّه لا مكثَ بين الإرسالِ لطاعةِ اللّه تعالى، وتعكيسِ ذلك باتّباعِ فرعونَ.

ولمّا كانتِ الفاءُ دالّةً في لسانِ العربِ وكلامهم على التّرتيبِ بلا تراخٍ[3] جاءَ بها مُتعجِّبًا منَ الملأِ، مُشيرًا إلى سرعةِ تكذيبِهم بالدّلائلِ والبيّناتِ الباهراتِ، واتّباعِهم فيما ضلالهُ لا يخفى على مَن لديهِ عقلٌ ورجحانٌ[4]؛ فحصلَ ذلكَ كلّهُ من دونِ تراخٍ عنِ الإرسالِ والتّبليغِ.

(1) الطّباطبائيّ، الميزان: 10/380.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/187.
(3) الكوديّ، شرح الكوديّ على الألفيّة، ص: 225.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/368.

ويجوزُ في معنى قولِه تعالى: ﴿فَٱتَّبَعُوٓاْ﴾: استمرّوا على الاتِّباعِ؛ فتكونُ الفاءُ كقولِ القائلِ: وعظتُهُ فلمْ يتّعِظْ ونحوه منَ الجملِ؛ فإنَّ المجيءَ بالأمرِ بعدَما يقتضِي الإقلاعَ عنهُ، وإنْ كانَ تتابُعًا فيه، فإنّهُ بحسبِ العنوانِ يعدُّ فعلًا جديدًا وصنعًا حادِثًا[1].

دلالةُ ذكرِ لفظِ الاتِّباعِ:

في قولِه تعالى: ﴿فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ﴾ ذكرُ قوم فرعونَ منَ الأشرافِ في مقامِ الاتّباعِ لهُ في الكفرِ والظّلم، وفي كلِّ ما قرّرهُ من صدِّ دعوةِ موسى، وجمعِ السّحرةِ، ثمَّ قتلِهم بعدَ إيمانِهم، ومنَ الطّغيانِ على بني إسرائيلَ، وغيرِ ذلكَ دونَ عذابِ الاستئصالِ[2]، إنّما هو من بابِ تقبيحِ أفعالِهم، وتشنيعِ صنيعِهم، وأنّهم إنمّا كانوا تبعًا لفرعونَ حقًّا وباطلًا، فهم مُتَّبعون لا مُجبرون، وهو ما يُمهِّدُ لذكرِ اتِّباعِهم له في النّارِ في الآياتِ اللّاحقةِ.

المتبوعُ في الدُّنيا مَتبوعٌ في الآخرة

سرُّ التّعبيرِ بلفظِ الأمرِ:

المقصودُ بالأمرِ في قولِه تعالى: ﴿فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ﴾ أمرُهُ قومَهُ وملأهُ بأن يكفروا بموسى ومعجزاتِه فهم تبعٌ لهُ، ويحتملُ أن يكونَ المرادُ من لفظِ الأمرِ الطّريقَ والشّأنَ[3]، أو كلَّ ما يَفهمونَ عنهُ أنّهُ يَهواهُ ويَأمرُهُ به وتَبعَهُمُ السَّفلةُ[4]؛ فهو لفظٌ يعمُّ ذلكَ؛ فيُلقى متابعةً منَ السّفلةِ الّذينَ اتّخذوهُ إلهًا وربًّا، واستُعملَ هذا اللَّفظُ للدّلالةِ على العمومِ، فهو شاملٌ لكلِّ ما يدخلُ تحتَه من معانٍ ودلالاتٍ.

كلُّ ما يناوئُ الحقَّ فهو من أمرِ فرعونَ

نكتةُ استعمالِ مصطلحِ فرعونَ:

استُعملَ لفظُ ﴿فِرۡعَوۡنَ﴾ تعبيرًا عنِ الحاكمِ، وهو في حقيقتِه لقبٌ لمَنْ يملكُ العمالقةَ في مصرَ في ذلكَ الزّمانِ كقيصرَ وكسرى عندَ

المجرمُ ينتهكُ كلَّ شريعةٍ؛ ليحافظَ على كلِّ مصلحةٍ قبيحةٍ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/238 - 239.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/125.
(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 18/394.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/573.

غيرهِم منَ الأمم، لكنّهُ لمّا رامَ الإشارةَ إلى أنَّ المحكومينَ كانوا تَبعًا خضَّعًا لمَن يحكمُهُم، سواء أكانَ عدلًا أم ظلمًا، رشدًا أم ضلالًا؛ فهمَ أتباعٌ لا رأيَ لهم ولا استقلالَ؛ فلذلكَ آثرَ ذكرَ لفظِ فرعونَ[1]، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ هذا الاصطلاحَ يُستعملُ لغاياتٍ شخصيَّةٍ، فلم يحرصْ ذلك الفرعونُ على هدايةِ قومه؛ لمعرفتِهِ أنَّ هذه الهدايةَ ستُحدّدُ صلاحياتِه ومَن معه منَ الملأ، فلذلك ألغوا وجودَ النّاس، وواجهوا هم دعوةَ موسى ﷺ بالكيدِ الباطلِ والأمرِ غيرِ الرَّشيد.

دلالةُ النّفي بـ (ما):

الرّشدُ كلُّه مَنفيٌّ عـنِ المـجـرمـين ثابتٌ للمُوقِنين

صُدِّرَتِ الجملةُ بما النّافيةِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ﴾؛ فقد نفَى الرّشدَ، وهو الاتّصافُ بالصّوابِ عن أمرِ فرعونَ؛ لأنَّ الرّشدَ لا يتحقّقُ إلّا إنْ كانَ المرءُ صالحًا في دينِه، ولمّا كانَ فرعونُ لا يُراعِي مصالحَ الدّينِ نفى عنهُ الرّشدَ[2]، وللدّلالةِ على نفي الرُّشدِ عن أمرِ فرعونَ كلِّه عمومًا مُطلقًا.

سرُّ تكرارِ لفظِ ﴿فِرۡعَوۡنَ﴾:

تَكرارُ إظهارِ لفظِ فـرعـونَ تشهيرٌ بشناعتِه وتذكيرٌ ببشاعتِه

ذُكِرَ اسمُ فرعونَ في قولِه تعالى: ﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾، فلمّا أرادَ ذكرَهُ ثانيةً أعادَهُ مُظهَرًا بقولِه: ﴿فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ﴾، ثمّ أعادَهُ ثالثةً في قولِه: ﴿وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ﴾ - وحقُّهُ الإضمارُ في ذينكَ الموضعين -؛ تشهيرًا بهِ، وإعلانًا بذمّهِ وقدحِه بانتفاءِ الرّشدِ عنهُ[3]، ولمزيدِ تقبيحِ الّذينَ اتّبعوا فرعونَ؛ إذ هو عَلَمٌ في الكفرِ والضّلالِ والطّغيانِ، واتّباعُهُ فرطُ جهلٍ وسوءُ استبصارٍ[4]، وفي إعادتِه بالاسمِ الظّاهرِ تذكيرٌ لهذا المرتكسِ الشّنيعِ. وفي الإظهارِ في مَواطنِ الذّمِّ مزيدُ تشنيعٍ على المُظهَرِ، ومديدُ تقبيحٍ لفعلِه.

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3747.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 9/498.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/155، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/268.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/239.

بلاغةُ المجازِ العقليّ:

الرُّشدُ منفيٌّ عن أمرِ فرعونَ نفسِه

إجراءُ وصفِ الرّشيدِ على الأمرِ من بابِ المجازِ العقليِّ[1]، فكونُ الرّشيدِ أمرًا فيه مبالغةٌ في اشتمالِ الأمرِ على موجبِ انتفاءِ الرّشدِ، فكأنّهُ وصفَ الأمرَ نفسهُ[2]، ولمّا كانَ "فرعونُ دَهريًّا نافيًا للصّانعِ والمَعادِ، وكانَ يقولُ: لا إلهَ للعالَمِ، وإنّما يجبُ على أهلِ كلِّ بلدٍ أنْ يَشتغلُوا بطاعةِ سلطانِهم، فلذلكَ كانَ أمرُهُ خاليًا عنِ الرُّشدِ بالكُلِّيَّةِ"[3]؛ فلذلكَ وصفَهُ بعدمِ الرُّشدِ، ولم ينعتْهُ بالسّفهِ.

سرُّ نفي الرُّشدِ دونَ إثباتِ السَّفَهِ:

الإيماءُ إلى أنَّ أمرَ موسى هو الرَّشيدُ، وشأنَه هو الحميدُ، ومآلَه هو المجيدُ

وفي قولِهِ تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ﴾ عدولٌ عن وصفِ فرعونَ بالسّفهِ إلى وصفِهِ بانتفاءِ الرّشدِ معَ أنّهُ مترادفٌ معهُ في المعنى، إلّا أنّهُ عدلَ عن ذاكَ الوصفِ تجهيلًا لمَنِ اتّبعَ أمرَهُ؛ لأنَّ منْ شأنِ العقلاءِ أنْ يقتدوا بما فيهِ صلاحٌ، غيرَ أنّ هؤلاءِ قدِ اتّبعوا ما أوصلَهُم إلى التّيهِ والضّلالِ لا إلى السّدادِ والهدى[4].

ولِما في النَّفي من إثباتِ المنّفي في الجهة المقابلةِ، وهي جهة موسى عليه السلام، فإنَّ أمرَه هو الرَّشيدُ، وإنَّ شأنَه هو الحميدُ، وإنَّ مآلَه هو المجيدُ.

توجيهُ المتشابهِ اللّفظيِّ في الذّكرِ والحذفِ:

عندَ ذكرِ السُّلطانِ اقترنَ بذكرِ جملةِ أمرِهم وهلاكِهم، وعندَ حذفِهِ ذُكِرَ أمرُهم حالًا بعدَ حالٍ حتّى هلاكِهم

عبّرَ بلفظ: ﴿وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾ بعدَ الآياتِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ٩٦ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِۦهِ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ﴾، وفي قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ٢٣ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ سَٰحِرٞ كَذَّابٞ

(1) "إسنادُ الفعل أو معناه إلى غير ما هو له عند المتكلّم في الظّاهر لعلاقة مع قرينةٍ صارفةٍ عن أن يكونَ الإسنادُ إلى ما هو له"، يُنظر: القزوينيّ، الإيضاح في علوم البلاغة: 1/83.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/155.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/205.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/156.

﴿٢٤﴾ [غافر: 23 - 24]، بينما خلا قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الزّخرف: 46] منهُ؛ لأنّ الرّسولَ يُبعثُ بالآياتِ والعلاماتِ الدّالّةِ على صدقِ دعواهُ، أمّا السّلطانُ المبينُ فهو الحججُ القاهرةُ كأنواعِ العذابِ النّازلِ على فرعونَ وقومه، فلمّا كانَ القصدُ منَ الآيتينِ الأُولَيَيْنِ ذكرَ ما كانَ من جملةِ أمرهِم إلى منتهى حالهِم وهلاكهِمُ الأكيدِ انطوتِ الجملةُ على جميعِ ما احتجَّ عليهِم، ثمَّ نيلهم العذابَ الدّائمَ، ففي الآيتينِ كانَ مصيرُهُمُ النّارَ[1].

أمّا الآيةُ الثّالثةُ "فلمْ يكنِ القصدُ إلى ذكرِ جملةٍ ممّا عُوملوا بهِ في الدّنيا وانتهائهِ بهم إلى عذابِ الأخرى... فاقتصَّ ما عُوملوا بهِ حالًا بعدَ حالٍ إلى أن أُهلكُوا في الدّنيا"[2]، فلمْ يكنْ حالُهُم أن يقابَلوا بالسّلطانِ المبينِ والحجّةِ البالغةِ؛ لأنّهُ تعالى أمهلَهُم ومدّ لهم، لعلّهم يعودون عن غيّهِم.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإرسالُ والبعثُ:

الإرسالُ يدلُّ على السّهولةِ واليسرِ، ويدلُّ أيضًا على الانبعاثِ، إلّا أنَّ هذا الانبعاثَ يقترنُ بالامتدادِ[3]، فيمكن أن يبعثَ الرّجلُ إلى نظيرهِ الحاجةَ بما يخصّهُ كأنْ تبعثَ الصّبيَّ إلى الكتّابِ، فيقالُ: بعثتهُ ولا يقالُ: أرسلتهُ؛ لأنَّ الرّسولَ لا يكونُ إلّا برسالةٍ[4]، وهو ما كانَ من رسالةِ موسى عليه السلام، وهو من أصحابِ الشّرائعِ والكتبِ السّماويّةِ، أمّا البعثُ فهو يحتملُ الإرسالَ معَ شيءٍ، وغالبًا ما يكونُ

الإرسـالُ يقترنُ بوجودِ رسالةٍ، والبعـثُ يكون لتحقيقِ غايةٍ

(1) الإسكافيّ، درّة التّنزيل: 2/779.
(2) الإسكافيّ، درّة التّنزيل: 2/780.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رسل).
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 103.

فيما هو أشدُّ كبعثِ الموتى، وكقولِهِ تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝٥﴾ [الإسراء: 5]، فالبعثُ هنا فيهِ قوّةٌ وقسوةٌ وعملٌ.

الآياتُ والمعجزاتُ:

كلُّ معجزةٍ آيةٌ، وليس كلُّ آيةٍ معجزةً

المعجزةُ مشتقّةٌ منَ العجزِ، وهو الضّعفُ؛ بأنْ تضعفَ عن طلبِ شيءٍ وإدراكِهِ[1]، ومعجزاتُ الأنبياءِ كذلكَ؛ فهي تُظهرُ عجزَ البشرِ عنِ الإتيانِ بمثلِها، وهيَ علامةٌ على رسالتِهم[2]، والفرقُ بينَ الآيةِ والمعجزةِ أنّ بينهما علاقةَ عمومٍ وخصوصٍ؛ فالآياتُ لفظٌ عامٌّ يشملُ الآياتِ القرآنيّةَ والعلاماتِ الربّانيّةَ والمعجزاتِ الإلهيّةَ، فيما تختصُّ المعجزةُ بما يأتي بهِ الرّسولُ، ولمّا كانَ ما أُرسِلَ بهِ موسى عليه السلام آياتٍ كثيرةً تصلُ إلى تسعِ آياتٍ[3] فصّلَ فيها المفسّرونَ، ويدخلُ تحتَها المعجزةُ كالعصا والطّوفانِ واليدِ ونحوها، عبّرَ عنِ الجميعِ بالآياتِ، ولو جاءَ بالمعجزاتِ لَما أعطى المعنى المرادَ، ولم يأتِ ذكرُ المعجزةِ في القرآنِ الكريمِ، وجاءَ لها مرادفاتٌ كالآيةِ والحجّةِ والبرهانِ والسّلطانِ، أمّا الآيةُ فهي عامّةٌ، يدخلُ فيه ما هو من قبيلِ المعجزةِ وما سواه.

السّلطانُ والحجّةُ:

الحجّةُ الاستقامةُ في النّظرِ، والسّلطانُ قوّةٌ قاهرةٌ في الاستدلالِ والاحتجاجِ

السّلطانُ: "قوّةُ اليدِ في القهرِ للجمهورِ الأعظمِ، وللجماعةِ اليسيرةِ أيضًا"[4]؛ فهو مُؤشرٌ على القوّةِ، فتأييدُ موسى بالآياتِ يصحبُهُ تأييدٌ بالسّلطانِ القاهرِ، وما ذلكَ إلّا لشدّةِ عنادِ المخاطبينَ الذين أُرسل إليهمْ، أمّا الحجّةُ فهيَ "الاستقامةُ في النّظرِ، والمضيُّ فيهِ على سَنَنٍ مستقيمٍ... مشتقّةٌ من معنى الاستقامةِ في القصدِ؛

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عجز).
(2) النّحّاس، معاني القرآن: 6/213.
(3) مجاهد، تفسير مجاهد، ص: 410.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 282.

حجّ يحجُّ إذا استقامَ في قصدهِ"[1]، فالتّعبيرُ بالسّلطانِ أليقُ لما كانَ من قوم فرعونَ المستكبرينَ العالينَ، وشدّتهُم معَ موسى ودعوتِهِ، فكيفَ يروّضهُم بالحجّةِ، وكانَ من قولهِم لهُ ولهارونَ عليهما السلام: ﴿فَقَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ٤٧﴾ [المؤمنون: 47].

الاتّباعُ والطّاعةُ:

الاتّباعُ ملازمةُ المتبوعِ ملازمةً تامّةً، والطّاعةُ تنفيذُ الأمرِ بسهولةٍ ويسرٍ

الاتّباعُ: السّيرُ خلفَ المتبوعِ[2] في إشارةٍ إلى الاتّباعِ التّامِّ، وهو ما كانَ منِ اتّباعِ قوم فرعونَ من غيرِ حجّةٍ ولا دليلٍ إلّا لفرطِ جهلِهم، وبالغِ غباوتِهم وتعاميهِم عن طريقِ الهدى والتّقى[3]، أمّا معنى الطّاعةِ فهيَ الّتي توجبُ امتثالَ الأوامرِ واجتنابَ النواهي، ولا تكونُ الطّاعةُ طاعةً خالصةً إلّا معَ اجتنابِ المعاصي[4]، فاستعمالهُ الاتّباعَ لدلالتهِ على عمى وضلالِ قوم فرعونَ وملئِهِ، أمّا الطّاعةُ فصفةُ العقلاءِ المُتسربلينَ سرابيلَ المهابةِ، الّذينَ تلفّعوا بأرديةِ التّذلُّلِ والانقيادِ، وضرعِ الاستسلامِ والاستكانةِ.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 233 - 234.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (تبع).
(3) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاويّ: 10/192.
(4) ابن منظور، لسان العرب: (طوع).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والعشرون، سورة هود من الآية 41 إلى الآية 114
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والعشرون، سورة هود من الآية 41 إلى الآية 114 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 21 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك :978-9948-768-18-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 21 : المجلد الحادي والعشرون، سورة هود من الآية 41 إلى الآية 114.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي :978-9948-768-18-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9725944 بتاريخ 2024/02/06م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»